مجلة

الجمعية العلمية السعودية للغة العربية

مجلة - علمية - محكمة

رقم الإيداع: (١٤٢٩/٣٣٠٢هـ بتاريخ ١٤٢٩/٦/٧هـ
الرقم الدولي المعياري (ردمد): ٤١٥٥ - ١٦٥٨

كل بحث نشر في المجلة
يعبر عن رأي صاحبه

أسرة المجلة

المشرف العام على المجلة، رئيس مجلس إدارة الجمعية:

- أ. د. حمد بن محمد العضيب

رئيس التحرير، رئيس اللجنة العلمية في الجمعية

- د. عبدالرحمن بن محمد العمار

أعضاء هيئة التحرير:

- د. وليد بن إبراهيم قصّاب
- د. عبدالرحمن بن عثمان الهليل
- د. صالح بن ناصر الشويرخ
- د. سليمان بن عبدالعزيز العيوني
- د. سعود بن عبدالله آل حسين
- د. سليمان بن سليمان العنقري

أمانة التحرير:

- د. علي بن موسى آل شبير
- د. أحمد بن محمد هزازي

طبيعة المجلة:

- مجلة الجمعية العلمية السعودية للغة العربية.
- مجلة علمية محكمة.
- تُعنى بعلوم اللغة العربية وآدابها.
- تنشر البحوث والدراسات العلمية المحكّمة.
- دورية نصف سنوية، تصدر بداية السنة الهجرية ومنتصفها.

شروط النشر:

- أن يكون البحث في علوم اللغة العربية وآدابها.
- أن يكون مكتوبًا على مقاس ورق (A4).
- أن يتّسم بالجِدّة والابتكار مع الأصالة وسلامة الاتجاه.
- أن يلتزم البحث بالسلامة اللغوية، والدقة في التوثيق والتخريج.
- أن يقدم الباحثُ نسختين حاسوبيتين من بحثه: إحداهما بصيغة (الوورد) متضمنة اسمه الرباعي وجهة عمله، والأخرى بصيغة (البي دي إف) مجردة من اسمالباحث، وملخّصاً باللغة العربية لا يزيد على صفحة .
- أن يلتزم الباحث بعدم نشر بحثه المقدم إلا بعد موافقة هيئة التحرير.
- أن يوقع الباحث إقراراً يتضمن امتلاكه لحقوق الملكية الفكرية للبحث كله.
- أن تكون الهوامش أسفل كل صفحة .
- ألا يكون البحثُ، كله أو بعضه – منشوراً، أو مقدّماً للنشر في مجلة أخرى.
- لا تلتزم المجلة بإعادة البحوث المنشورة وغير المنشورة إلى أصحابها.

المراسلات:

تكون المراسلات: باسم

رئيس تحرير المجلة العلمية للجمعية العلمية السعودية للغة العربية.

على عنوان الجمعية:

العنوان البريدي على الشبكة: arabic1429@gmail.com

العنوان البريدي المملكة العربية السعودية

الرياض: ١٤٣٢ – ص. ب. ٥٧٦٢ (الجمعية)

الهاتف: ٠١١/٢٥٨٥٥٨٩ – الناسوخ: ٠١١/٢٥٨٥٥٩٠

(للاستفسار عن الاشتراك في المجلة يمكن المراسلة عن طريق العنوان السابق).

روميات أبي فراس الحمْدَاني:

دراسة في الموضوع والرؤية والتجربة

د. صالح بن عبدالعزيز المحمود

قسم الأدب - كلية اللغة العربية

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

تقديم:

يُعَدُّ أبو فراس الحمداني (٣٢٠ – ٣٥٦هـ) واحداً من أهم شعراء المرحلة العباسية، وقد تفرد هذا الشاعر في الذاكرة العربية بميزات استثنائية يندر أن تجتمع لرجل واحد؛ فهو شاعر مُجيد، وفارس مغوار، وأمير شريف من أمراء بني حمدان، وهذه الصفات أسهمت بشكل مباشر في صياغة شخصية إنسانية متفردة، ظلت خالدة عبر التاريخ العربي الطويل.

وحين يُذكر أبو فراس شاعراً، فإن الذاكرة تستدعي سريعاً قصائده الخالدة التي قالها حين وقع أسيراً لدى الروم في إحدى المعارك الجهادية التي كان يقودها لصالح ابن عمه سيف الدولة الحمداني، تلك القصائد التي اصطلح على تسميتها بالروميات، بالنظر إلى البيئة التي قيلت فيها؛ حيث نظمها أبو فراس وهو يرزح في ذل الأسر لدى الروم، واصطبغت بها روحه الوثابة، وظهرت فيها عزة الفارس الأمير، وضعف الشاعر الأسير، وتفردت بشعور إنساني عميق، منحها الخلود والذيوع في الذاكرة الإبداعية العربية.

إن هذا البحث يحاول أن يعيد قراءة الروميات، مستعرضاً موضوعاتها ومضامينها، ومحاوراً رؤيتها الشعرية، ومختبراً تجربتها الإنسانية العميقة، وتوقدها العاطفي الصادق، ومنطلقاً في سبيل ذلك من عتبات معرفية لها أهميتها وضروريتها، أُولاها تعطي لمحة موجزة عن الدولة الحمدانية التي ينتسب إليها أبو فراس، والثانية تتجه إلى أبي فراس نفسه؛ تعريفاً به، وعرضاً لحياته، والثالثة تستنطق الروميات، محاولة عرض جملة من المعلومات عنها، كالمصطلح، والقيمة، ودواعي النظم.

التمهيد:

أ – الحمدانيون "لمحة تاريخية":

ظهر الحمدانيون في أواخر القرن الثالث الهجري، وفي القرن الرابع استطاعوا أن يؤسسوا دولة احتلت مكاناً مرموقاً في العالم الإسلامي آنذاك؛ فقد كانت دولة الحمدانيين في منطقة الموصل، ثم حلب، تسد فراغاً كان موجوداً بين قوة الخلافة في بغداد وقوة الإخشيديين ثم الفاطميين الذين يحكمون في مصر والشام، وقد كان نفوذ بغداد ضعيفاً في هذه المنطقة، كما كان نفوذ مصر في أضعف حالاته كذلك في هذه المنطقة الكبيرة الأهمية؛ لمواجهتها للجبهة البيزنطية، ولذلك كان قيام الحمدانيين ضرورة لسد هذا الفراغ بين هاتين القوتين الإسلاميتين اللتين بدا واضحا عدم فعالية المشاركة بينهما في الدفاع عن هذا الثغر الهام[1].

لقد كان ظهور الحمدانيين نابعاً من طبيعة هذه المنطقة الثغرية، وحاجاتها إلى الدفاع الناجح في وقت انتعشت فيه الإمبراطورية البيزنطية في عهد الأسرة المقدونية، ونشطت لمهاجمة العالم الإسلامي، واسترداد بلاد الشام، أو على الأقل تدمير القوة الإسلامية في الثغور، والحد من نشاطها، وقد تصدت الدولة الحمدانية لهذا النشاط الرومي، ومن هنا تبرز أهمية الحمدانيين

(١) انظر: أثر الحمدانيين في الحياة السياسية في القرن الرابع: ص ٨٥، سيد عبد المجيد، الدار الوطنية / ط١، تونس ١٩٨٠ م.

والدور الذي أدوه في خدمة العالم الإسلامي[١].

وقد كانت الدولة الحمدانية أول إمارة عربية تنشأ في مصْرٍ إسلامي بعد أن تغلغل نفوذ الأجانب من أعاجم فأتراك وديلم، وسيطروا على السياسة الإسلامية، فكان لهم الأمر والنهي، والحول والطول، والقيادة والتوجيه، والعزة والغلبة، فكانت دولة الحمدانيين دولة غريبة وحيدة من نوعها.

وقد كان لجهاد الحمدانيين ضد الروم أثر لا يخفى في إظهارهم في العالم الإسلامي قوةً لها فعاليتها واحترامها، والذين اشتهروا من بني حمدان، وقاموا بدورهم، سواء في شؤون الخلافة، أم في ميدان الجهاد ضد الروم؛ أبو محمد الحسن بن عبدالله [٢] الذي لقب (ناصر الدولة)، وأخوه أبو المحاسن علي بن عبدالله [٣] الذي لقب (سيف الدولة)، ولقد تشعبت الدولة الحمدانية إلى شعبتين: إمارة الموصل وعليها ناصر الدولة، وإمارة حلب وعليها سيف الدولة التي انتزعها من الإخشيديين سنة ٣٢٣هـ[٤].

كما كانت حلب منارة إشعاع فكري وأدبي، حيث ضم بلاط سيف الدولة مشاهير الأدباء والشعراء والفلاسفة وغيرهم، وكان سيف الدولة لا يبخل على مرتاديه من العلماء بالعطايا و الهبات، كما كان ناقدا وذواقاً للشعر.

وفي تلك البيئة نشأ شاعر أصيل، وفارس مقدام، عُدّ الشخصية الثانية في المجتمع الحمداني بعد سيف الدولة، إنه الحارث بن سعيد المكنى بأبي فراس الحمداني، الساعد الأيمن لابن عمه سيف الدولة [٥].

(١) انظر: العالم الإسلامي في العصر العباسي: ص ٤٤٢، حسن محمود وأحمد الشربيني، دار الفكر العربي ط ١، القاهرة، ١٩٨٤م.
(٢) الحسن بن عبدالله الحمداني من أبرز قادة الحمدانيين ولي حلب زمناً وتوفي فيها سنة ٣٥٠هـ، (الأعلام:٢/١١٠).
(٣) علي بن عبدالله الحمداني سيف الدولة أشهر قادة الحمدانيين، اشتهر بجهاده ضد الروم ت ٣٥٦ هـ، (الأعلام:٤/٢١٥).
(٤) انظر: العالم الإسلامي في العصر العباسي: ص٤٤٣.
(٥) انظر: أبو فراس الحمداني حياته وشعره : ص٣٢و٨٨، عبد الجليل عبد الهادي، مكتبة الأقصى، ط١، عمان، ١٩٨١م.

ب – أبو فراس الحمداني لمحة عامة :

هو الحارث بن أبي العلاء سعيد بن حمدان بن الحارث بن لقمان بن راشد بن المثنى بن الحارث بن غطيف بن محربة بن حارثة بن مالك بن عبيد بن عدى بن أسامة بن مالك بن بكر بن حبيب بن غنم بن تغلب، وكنيته أبو فراس، وهي كنية من كنى العرب، يصفون بها من كانوا يتوسمون فيه الشجاعة والبطولة(١).

ولد أبو فراس في سنة ٣٢٠هـ، وتكاد جميع المصادر التي استطعت الرجوع إليها تجمع على ولادته في هذا التاريخ، ولم يخرج على هذا الإجماع من المتأخرين إلا محمد مهدي البصير الذي قال في كتابه (في الأدب العباسي) : " فيجب أن يكون قد ولد سنة ٣١٨هـ على أقل تقدير"(٢).

كان أبو فراس شاعراً أميراً فارساً، قال عنه الثعالبي: "كان فرد دهره، وشمس عصره، أدباً، وفضلاً، وكرماً، ونبلاً، ومجداً، وبلاغة، وبراعة، وفروسية، وشجاعة"(٣).

وأبوه أبو العلاء سعيد أمير من أمراء بني حمدان، احتل مكانة مرموقة في عهد الخليفة المنصور، وتولى ولايات عدة من قبل الخليفة العباسي، وقتله ابن أخيه غدراً سنة ٣٢٣هـ، وسبب ذلك أن الخليفة ولاه إمارة الموصل وأغراه أن يطرد منها ابن أخيه، فدبر له مكيدة أودت بحياته(٤).

وكان أبو فراس وحيد أمه التي يبدو أنها لم تكن من أصل عربي، فهو يقول:

إذا خفت من أخوالي الروم خطة تخوفت من أعمامي العُرْبَ أربعاً(٥)

والأسرة الحمدانية تنحدر من أصل عربي صريح هو قبيلة تغلب بن وائل، وكانت قبيلتا تغلب وبكر أعظم قبائل ربيعه شأناً في بلاد العرب؛ لعهدهما القديم، وعرفت تغلب في جميع أدوار تاريخها بالصرامة وقوة الشكيمة والبسالة والأنفة (٦).

"وكانت قبيلة تغلب تنزل هضاب نجد والحجاز وتنتقل في الجزيرة العربية شأن قبائل العرب، وأخيراً استقر المقام بها في المنازل التي عرفت بديار ربيعة في الجزيرة العربية شمالي بلاد العراق بين دجلة والفرات، وعلى تخوم الشام، وعاشت جماعة تغلب في مضارب على الضفة اليمنى لنهر الفرات، عند منبج والرصافة وقنسرين ودمشق، وإلى هذه القبيلة ينتسب حمدان مؤسس أسرة شاعرنا، تلك الأسرة التي لم يغب عن ذهنها يوماً فخرها بهذا النسب، وما كان لآبائها في الجاهلية والإسلام من كرامة "(٧).

(١) انظر: وفيات الأعيان ابن خلكان: ٥٨/٢، تحقيق إحسان عباس دار صادر ط٤، بيروت، ١٩٨١م.
(٢) في الأدب العباسي: ص٣٨٢، محمد مهدي البصير، مطبعة النعمان، ط١، بغداد، ١٩٨٠م.
(٣) يتيمة الدهر:٣٥/١ للثعالبي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، ط٢، بيروت، ١٩٧٤م.
(٤) انظر: الشعر في رحاب سيف الدولة الحمداني: ص٨١، سعود عبد الجبار، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨١م .
(٥) ديوان أبي فراس: ص١٨٤، رواية ابن خالويه، دار صادر، ط١، بيروت، ١٤١٠هـ .
(٦) انظر: شاعر بني حمدان: ص١١، أحمد بدوي، لجنة البيان العربي، ط١، القاهرة، ١٩٥٢م .
(٧) في الأدب العباسي: ص٣٨ .

أسره :

في ذات يوم من أيام شوال سنة ٣٥١هـ أقبلت كتيبة من الجيش البيزنطي، فكمنت تحت حصون (منيح) البعيدة، فإذا أبو فراس عائد من الصيد مع غلمانه، فباغته الروم في ألف رجل، فدافع حتى أثخن بالجراح، وأصابه سهم بقى نصله في فخذه فوقع أسيراً، وكان أصحابه قلة لا يتجاوزون السبعين، وقد أرادوا له الهزيمة والسلامة، فرأى لنفسه الأسر مع الكرامة .

وقد اختلف الباحثون والمؤرخون في مدة أسر أبي فراس لدى الروم، وسبب هذا الاختلاف هو تضاربهم في تحديد التاريخ الصحيح للأسر، فهناك من يرى أنه أسر سنة ٣٤٨هـ[١]، وهناك من يرى أنه أسر عام ٣٤٩هـ[٢]، وربما يكون أسره عام ٣٥١هـ؛ لأن أكثر المصادر اتفقت على أنه تخلص من الأسر عام ٣٥٥هـ، وحتى لو قيل إنه انتقل من سجن لآخر من سنة ٣٤٨هـ أو ٣٤٩هـ إلى عام ٣٥٥هـ، لكن الذي لا أستبعده أنه قد يكون أسر مرتين؛ الأولى عام ٣٤٨هـ، لكنه لم يمكث فيه طويلاً؛ حيث تخلص من الأسر بطريقته الخاصة وهي الهرب، والثانية سنة ٣٥١هـ، بعد أن أصيب بسهم في فخذه، ودخل السجن عزيزاً؛ لأنه لم يستجب لرأي أصحابه الذين كانوا معه، وأشاروا عليه بالهرب والسلامة، لكنه رفض الهرب ذليلاً، وقبل السجن والأسر عزيزاً، ويصف ذلك بقوله :

أسرت وما صحبي بعزل لدى الوغى ولا فرسي مهر ولا ربه غمر

ولكن إذا حُمَّ القضاء على امرئ فليس له بر يقيه ولا بحر

وقال أصيحابي : الفرار أو الردى فقلت : هما أمران أحلاهما مر

ولكنني أمضي لما لا يعيبني وحسبك من أمرين خيرهما الأسر[٣]

(١) انظر: شذرات الذهب: ٢٤/٣، لابن العماد، المكتب التجاري، ط١، بيروت، ١٩٧٥م.

(٢) انظر: زبده لحلب من تاريخ حلب: ١٣١/١، لابن العديم، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي بدمشق، ١٩٥١م.

(٣) ديوان أبي فراس: ص ١٦٥ .

وأخذ أبو فراس يلتمس من سيف الدولة أن يفتديه من أسره، ويرجوه أن يسعى لفك أسره، مذكراً إياه بقدره وقيمته، ومعدداً مناقبه في محاولة لإقناع سيف واستعطافه :

أسيف الهدى وقريع العرب علام الجفاء ؟ وفيم الغضب ؟
وما بال كتبك قد أصبحت تتكبني مع هذا النكب
ومن أين ينكرني الأبعدون أمن نقص جد أم من نقص أب[١]

وكان سيف الدولة يعتذر إلى أبي فراس عن عدم سعيه لفك أسره بأنه يريد أن يكون الفداء لجميع الأسرى المسلمين الذين معه، وقد حصل هذا الفداء عام ٣٥٥هـ، واتفقت المصادر على هذا التاريخ[٢].

ز- مقتله :

بعد أن تخلص أبو فراس من الأسر عام ٣٥٥هـ، ولاه سيف الدولة إمارة حمص تعويضاً له عما لحقه إبّان الأسر، بيد أن حياة سيف الدولة لم تستمر أكثر من عام؛ حيث وافته المنية سنة ٣٥٦هـ، وتولى الخلافة من بعده ابن له صغير، وكان أبو فراس خالاً لذلك الابن؛ وقد ذكرت الروايات أن أبا فراس طمع بالإمارة، بخاصة أن ابن أخته كان غلاماً صغيراً[٣].

وفي عام ٣٥٨هـ خرج أبو فراس من حمص قاصداً حلب؛ ليواجه ابن أخته، بيد أن جمعاً من بني كلاب كانوا يناصرون سيف الدولة تصدوا له، وأردوه قتيلا[٤].

وقد روت بعض المصادر أن جثة أبي فراس " بقيت مطروحة في البرية حتى كفنه رجل من الأعراب، وذلك في شهر ربيع الأول سنة ٣٥٨هـ "[٥].

ويروى أن ابن أخت أبي فراس احتال عليه، ودعاه إلى حلب بتحريض من حُجَّاب أبيه، وهناك قتله غدراً[٦].

والرأي الأخير اختاره عدد من المعاصرين الذين خصوا أبا فراس بدراسات مستفيضة، كصاحب كتاب (في الأدب العباسي)[٧]، وصاحب كتاب (أبو فراس الحمداني الشاعر الأمير)[٨].

(١) ديوان أبي فراس: ص ٢٨، ٢٩.
(٢) انظر: شذرات الذهب: ٢٤/٣و٢٥، و زبدة الحلب: ١٣١/١، ونهر الذهب في تاريخ حلب: ٦٤/٣، لكامل البالي الحلبي الغزي، المطبعة المارونية، ط١، سوريا، ١٩٢٦م .
(٣) انظر: أبو فراس الحمداني الشاعر الأمير: ص٩٧، حسان عبد المولى، دار التنوير، ط١، عمّان، ١٩٩٦م .
(٤) انظر: زبدة الحلب: ١٠٠/٢.
(٥) المرجع السابق : ١١٥/٢.
(٦) انظر: نشوار المحاضرة:٢٢٦/١، القاضي التنوخي، تحقيق عبود الشالحي، دار المنار، ط٣، بيروت،١٤١٠هـ.
(٧) راجع: في الأدب العباسي: ص٣٨٨.
(٨) راجع: أبو فراس الحمداني الشاعر الأمير: ص١٠١.

ويذهب بعض المستشرقين إلى أن أبا فراس توفي في بيته متأثراً بجراح أصيب بها في إحدى المعارك الجهادية ضد الروم، مستدلاً على ذلك بأبياته المشهورة التي وجهها إلى ابنته،[1] وهي:

أبنيتي لا تجزعي كل الأنام إلى ذهاب
نوحي عليّ بحسرة من خلف سترك و الحجاب
قولي إذا كلمتني وعييت عن رد الجواب
زين الشباب أبو فرا س لم يمتّع بالشباب[2]

والأرجح الجمع بين القولين، فأبو فراس قد يكون تعرض للغدر من قبل أعوان ابن أخته الذين اغتالوه وحاولوا قتله، بيد أنه لم يمت ساعتها، وإنما نقل إلى منزله متأثراً بجراحه، ولما رأته ابنته بكت، فقال الأبيات السابقة، ومات بعدها بأيام .[3]

وهكذا طوى الموت فارس بني حمدان وشاعرها الكبير، أبا فراس الحمداني عن عمر يناهز الأربعين عاماً فقط، قضاه بين ثغور الجهاد، وبلاط قومه من بني حمدان .

(١) انظر: تاريخ الأدب العربي: ٩٢/٢، بروكلمان، ترجمة عبد الحليم النجار، دار المعارف، ط٣، مصر، ١٩٨٣م.
(٢) ديوان أبى فراس: ٥٥.
(٣) انظر: سيف الدولة وعصر الحمدانين:٣٥١/١، سامي الكيالي، دار المعارف، ط١، مصر، ١٩٨١م.

المبحث الأول / الروميات ، المصطلح والقيمة ودواعي النظم :

أُسِرَ أبو فراس وكان أسره سبباً لآلامه، وهذه الآلام كانت ينبوع قسم كبير من شعره، عُرف في ذاكرة الأدب العربي بالروميات، والروميات جمع رومية، وهي القصائد التي أنشدها أبو فراس حينما كان أسيراً في بلاد الروم .

وقد بلغ عددها نحو خمس وأربعين قصيدة، وقد اصطلح الأدباء والمؤرخون القدامى على تسميتها بهذا الاسم نسبة إلى البيئة التي قيلت فيها، فصاحب اليتيمة أطلق هذه التسمية، وأفردها بكلام خاص؛ لتميزها عن فنونه الشعرية الأخرى من قبل(١).

وسارت هذه التسمية بين الأدباء والمؤرخين القدامى مقصوداً بها شعر أبي فراس في أسره، ولكننا نجد بعض العلماء يسميها (الأسريات)(٢) نسبة إلى الأسر، ومنهم من يسميها "قصائد الأسر" ويرى أنها أولى من الروميات، بحجة أنه لو كان أسيراً بغير بلاد الروم لقال تلك القصائد بعينها، فالروميات يصح أن يكون اصطلاحاً للشعر الذي قيل في حروب العرب مع الروم، لا أي شعر يقال عند الروم(٣).

وسواء سميت الروميات أو الأسريات أو غيرها، كل ذلك لا يغير مكانتها بين الأدباء والنقاد حين نظروا لها نظرة خاصة، فميزوها عن أشعار أبي فراس التي قالها قبل الأسر، ورأوا فيها خلوداً للشاعر؛ لما اتسمت به من ميزات وخصائص.

وعلى الروميات تقوم شهرة أبي فراس، فقد بلغ فيها أسمى ما كانت تؤهله له موهبته الشعرية، ولا عجب؛ فهي صورة شفافة لنفس الشاعر في عزتها، وأنفتها، وتجلدها في المصاب، وثقتها بالله، وحنينها العميق إلى الأهل والوطن، ولذا جاءت صادقة تلامس شغاف القلوب، وتترك في روح القارئ أثراً غائراً.

والحق أن جلّ من تعرض لدراسة الروميات أشاد بها وأثنى عليها، فهذا صاحب اليتيمة يصفها بـ " هدف الإحسان، وشاكلة الصواب، لو سمعتها الوحوش أنست، أو استدعي بها الطير نزلت " (٤).

وذكر صاحب نشوار المحاضرة أن أبا فراس لم يحسن شدة إحسانه في الروميات؛ إذ جاء فيها بمعانٍ مخترعة لم يسبق إليها(٥).

وخلاصة القول إن الروميات " تشتمل على خير ما يتحلى به صاحبها من حنان، وعزة نفس، وإباء وشجاعة وصبر، فهي دعامة خلوده الأولى؛ لما تتضمنه من معانٍ رائعة، وتصوير صادق لكثير من العواطف الإنسانية " (٦).

(١) انظر: يتيمة الدهر ٦٠/١.
(٢) انظر: أبو فراس الحمداني حياته وشعره: ص٢٨٢.
(٣) انظر: المرجع السابق: ص٢٨٣.
(٤) يتيمة الدهر: ٨٨/١.
(٥) انظر: نشوار المحاضرة:١٩١/١.
(٦) أبو فراس الحمداني: ص٤٣، جورج غريب، دار الثقافة. ط٣، بيروت، ١٩٨٥م.

ويمكن أن ألخص دواعي نظم الروميات في المثيرات الآتية :

أ - ألم الأسر :

كان للألم يد طولى في تكوين نفسية شاعر الروميات، وأثر ظاهر في ذلك الشعر، فهو من رقق العواطف، وأرهف الحس، فجعله متيقظاً لأخفى المشاعر، وقد يميط الستار عن عواطف في النفس مكتومة كامنة، فتتفجر عيون صافية بشعر صاف، ويهتدي الشاعر إلى موارد جديدة أكثر عذوبة وصفاء.

وهكذا جرى لأبي فراس، وهو الشاعر الوجداني المعروف برقة شعوره، وسرعة تأثره، وهو الذي قضى زمن شبابه في نعمة ومجد، يتطلع إلى مستقبل زاهر، ثم أُسر، ولحق به من جراء الأسر ذلٌّ مهين، وتحطيم لآمال واسعة، وانكفاء على الذات؛ لاكتناه معنى الحياة، والتقاط العواطف، وناله ألم في الجسد، وألم في النفس، وتنكّر له الأقربون، وعاودته ذكرى الماضي السعيد.

ب - تأخر سيف الدولة في فدائه:

وقد كان لتأخر سيف الدولة في افتدائه تأثير بالغ في نفسيته المرهفة، وهو الذي كان جندياً شجاعاً في جيشه، وقائداً هماماً من قواده، كما أنه ابن عمه، وصفيه وصديقه، فكان ذلك التأخر نصلاً انغرس في قلبه، وهاج حزنه وألمه، فكتب لسيف الدولة معاتباً ومستعطفاً ومذكراً.

ج - مرض أمه وموتها:

كما أن في ألم أمه وحزنها على ابنها ومرضها جرحاً غائراً في وجدانه؛ حيث بلغه ما كانت أمه تعاني من أسى بسبب أسر ابنها، وما كانت تحاوله من استعطاف لسيف الدولة، ثم بلغه مرضها، فموتها، وكان لهذه الأمور أثر عظيم في روحه المنهكة المنكسرة.

د - رقة قلبه :

وحين تتجمع المصائب على مثل أبي فراس، فإنها تهده هداً؛ ذلك أنه كان ذا شعور حساس وسريع التأثر، وقلبه رقيق وشفاف، وروحه سريعة الانكسار، كما أنه ذو أنفة وعزة واعتداد، كيف لا، وهو الفارس والأمير؟ ولذا كان أسره فاجعة حقيقية في حياته؛ إذ جعله مختنقاً بألمه، ولم يجد بداً من أن يتنفس بالشعر.

"ولذلك ترى في روميات أبي فراس مزيجاً من الشكوى ووصف الأسر في ذله وشقائه، والاستعطاف والعتاب، والفخر، والتعزية بالرثاء، والاعتصام بالصبر، وانتظار من اللّه الذي يوقي ويعز"(١).

(١) تاريخ الأدب العربي: ص٦٥٨، حنا الفاخوري، المطبعة البلنسية، ط١ (د.ت).

المبحث الثاني / الموضوع الشعري في الروميات :

الروميات قصائد متعددة الموضوعات غالباً، بيد أن كل قصيدة قد يغلب عليها موضوع شعري، فيكون حاضراً بقوة في روح القصيدة منذ مبتدئها، وسأحاول هنا أن ألملم شتات الموضوعات الشعرية التي اشتملت عليها تلك القصائد، وسأرتب تلك الموضوعات بحسب كثرة حضورها وتأثيرها في الروميات .

أولاً / الأنفة والاعتداد بالذات :

لم يكن هذا الموضوع جديداً على أبي فراس، فهو موضوع أصيل في شعره قبل الأسر؛ وظل أصيلاً في الروميات، فساد معظمها، واختلط بالموضوعات الشعرية الأخرى، وقد اختلفت بواعث الاعتداد في نفس الشاعر عنها قبل الأسر؛ إذ أصبح يكثر الحنين إلى ماضيه المجيد في مختلف الميادين من إمارة وبطولة وفروسية وكرم وغيرها، وافتخر أيضا بماضيه ومآثره الجليلة السابقة، فهو محروم منها في أسره، وكأنما يحاول تعويض ذلك في شعره، وقد كان يذكر أيامه السابقة، وكيف كان نجماً من نجوم بنى حمدان، يذود عن الثغور، ويحفظ النساء، وكأنما يحاول بهذا الشعر أن يعوض ما حرم منه وهو في الأسر .

وكان مجال الاعتداد بالذات عند أبى فراس بعد الأسر هو الفخر بنفسه وشعره، وقليلاً ما افتخر بقومه، بينما كان قبل الأسر كثير الافتخار بهم، ولعل السبب في ذلك تأخر قومه عن فدائه، وتنكر معظم أقاربه له .

ومجال أنفته واعتداده بنفسه لا يخرج عما افتخر به قبل الأسر، فقد ساعدته مكانته في قومه على عدم ترك صفة من صفات الفارس العربي الأصيل إلا أسبغها على نفسه، وحاول إظهار مكانته بين قومه وشديد حاجتهم إليه، ويحاول تسويغ موقفه عندما أسر، مرجعاً ذلك إلى القدر، فلا مفر للإنسان من قدره:

أسرت وما صحبي بعزل لدى الوغى ولا فرسي مهر ولا ربه غمر

ولكن إذا حمّ القضاء على امرئ فليس له بر يقيه ولا بحر[1]

ثم نراه يتحدث عن تلك المعركة التي نصحه بعض أصحابه بالفرار منها، ولكنه رأى الفرار مذلة:

وقال أصيحابي : الفرار أو الردى ؟ فقلت: هما أمران أحلاهما مر[2]

فهو لا يرضى بالمذلة أبدا؛ لأنه يمضي إلى الشيء الذي لا يعيبه مهما كانت نتائجه وعواقبه.

(١) ديوان أبي فراس : ص١٦٠ .
(٢) المصدر السابق نفسه .

ويزداد اعتداد أبي فراس بشجاعته وفروسيته ومجده الماضي، كلما طالت مدة أسره، فيؤكد أن ما وصل إليه من شجاعة وقوة لا يستطيع أي إنسان أن يصل إليه، بل يريد صاحب همة عالية في سبيل هذا المجد، يقول :

رفعت على الحساد نفسي ، وهل هم وما جمعوا لو شئت إلا فرائس؟

أيدرك ما أدركت إلا ابن همة يمارس في كسب العلا ما أمارس؟

يضيق مكاني عن سواي لأنني على قمة المجد المؤثل جالس[1]

وكثيراً ما يفتخر بفروسيته وبطولته، وأنه فارس بني حمدان الذي لا يشق له غبار قبل أن يقع في الأسر، وأنه لم يطلب الفداء من ابن عمه إلا لأنه يريد أن يموت موت الأبطال في ساحة الحرب :

تشبثْ بها أكرومة قبل فوتها وقم في خلاصي صادق العزم واقعد

متى تخلف الأيام مثلي لكم فتى طويل نجاد السيف رحب المقلد؟[2]

إلى أن يقول:

يقولون: جنّب عادة ما عرفتها شديداً على الإنسان ما لم يعود

قلت: أما والله ما قال قائل: شهدتُ له في الحرب الأم مشهد

ولكن سألقاها فإما منية هي الظن أو بنيان عز موطد[3]

ولا تستمر الحال هكذا، فربما مرت به ساعات كان يحس بها ذلّ الأسر، فيظهر في شعره ضروباً من الحسرة والألم بعد أن حُرم من كل ما كان يتمتع به، فأصبح لا يمتطي صهوة جواده في ميدان الحرب، ولا ينازل الأعداء، ولا يتعفر وجهه بغبار المعركة التي تعود عليها:

إلى الله أشكو أننا بمنازل تحكم في آسادهن كلاب

ولا شد لي سرج على ظهر سابح ولا ضربت لي بالعراء قباب

ولا برقت لي في اللقاء قواطع ولا لمعت لي في الحروب حراب[4]

(١) ديوان أبي فراس: ص١٧٦.
(٢) المصدر السابق: ص٨٤.
(٣) المصدر السابق: ص٨٤.
(٤) المصدر السابق: ص٢٥.

ثم نراه يتذكر أيامه الخوالي، وكيف كان كرمه يملأ الآفاق وقد شمل كل ضيف، وكيف كان يعامل جاره بأريحية وكرم كعادة العرب :

أنا الجار لا زادي بطيء عليهم ولا دون مالي للحوادث باب

ولا أطلب العوراء منهم أصيبها ولا عورتي للطالبين تصاب

وأسطو وحبي ثابت في صدورهم وأحلم عن جُهالهم وأهاب[١]

ويبلغ أبو فراس الذروة في فخره واعتداده بذاته في رائيته المشهورة (أراك عصيَّ الدمع) فهو يفتخر بقياده الجيوش الجرارة، واختصاصه بمنازل الفرسان الأقوياء الأشداء:

وإني لجرار لكل كتيبة معودة أن لا يخلّ بها النصر

وإني لنزّال بكل مخوفة كثير إلى نُزّالها النظر الشزر[٢]

وهو الذي يمنع نفسه عن الماء فيشتد عليه العطش، ولا يسمح لنفسه بالشرب حتى ترتوي البيض والقنا، وهو الذي يخبر القوم قبل الحرب فلا يأتيهم بغتة، بل يخبرهم حتى يستعدوا له ولها، ومع هذا يقتل منهم خلقاً كثيراً حتى تشبع الطيور الجارحة والحيوانات الضارية :

فأظمأ حتى ترتوي البيض و القنا وأسغب حتى يشبع الذئب والنسر

ولا أُصبح الحي الخلوف بغارة ولا الجيش ما لم تأته قبلي النذر[٣]

وهو الذي لبس ثياباً حمراء من دماء أعدائه، فلا ضير إن نزعوا ثيابه؛ إذ تستره الثياب التي ألبسها نفسه من كثرة مَنّ قتل منهم، وتلطخ جسمه بدمائهم :

يمنون أن خلوا ثيابي وإنما عليّ ثياب من دمائهم حمر

وقائم سيف فيهم اندق نصله وأعقاب رمح فيهم حطم الصدر

سيذكرني قومي إذا جَدَّ جدهم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر[٤]

(١) ديوان أبي فراس: ص٢٥.
(٢) المصدر السابق: ص١٥٨ .
(٣) المصدر السابق: ص ١٥٩.
(٤) المصدر السابق: ص ١٦١.

وكثيراً ما يفتخر أبو فراس بسجاياه، وكثيراً ما ذكر لوم الناس له على اقتحام المنايا والاندفاع في الصعاب، يقول في إحدى قصائده:

ألام على التعرض للمنايا ولي سمع أصم عن الملام[1]

هذه هي أخلاق الفارس العربي الهمام الذي لا يهاب الموت، وإنما يقدم عليه؛ ويعرض عن المثبطين المخوِّفين، وهو هنا في ذروة اعتداده بشجاعته وإقدامه .

وكما اعتدّ أبو فراس بشجاعته فقد اعتدّ بشعره وشاعريته، فهو سيف قومه ولسانهم، يدافع عنهم، ويحفظ حقوقهم :

فإن تفتدوني تفتدوا لعلاكم فتى غير مردود اللسان أو اليد

يدافع عن أعراضكم بلسانه ويضرب عنكم بالحسام المهند[2]

ومع كل هذا، فلم يخصص أبو فراس رومية واحدة مستقلة يصور فيها عزته وأنفته واعتداده بذاته، وإنما كان هذا الموضوع ثيمة بارزة وشبه ثابتة في سائر روملياته .

ثانياً / الشكوى والمعاتبة :

لم يكن هذا الموضوع بارزاً في شعر أبي فراس قبل أسره، لكنه حضر بشكل طاغٍ في روملياته، وقد ساعد على ذلك عدة عوامل، أهمها الأسر والسجن، والذل والغربة، والبعد عن الأهل والوطن، واضمحلال الأماني التي كان يحلم بها، وأساه ولوعته على أمه العجوز التي تعاني المرض والأسى بعد وقوع ابنها الوحيد في الأسر .

لقد تكاتفت هذه العوامل فأذكت نار الحزن والألم والشكوى في قلب الشاعر، مما ساعد على تفجر ينبوع الشعر عنده، فصدرت هذه الشكوى ممزوجة بالحزن والأسى، مما جعل لها سمات خاصة، تختلف فيها عن أغلب قصائده، فهي صادرة من أعماق النفس الصادقة .

لقد ساد هذا الموضوع في الروميات بشكل ظاهر، فجلّ قصائده التي قالها في الأسر لا تخلو من تشكٍ ومعاتبة، وإن لم تكن اعتمدت عليه اعتماداً كلياً، وتنوعت نبرة الشكوى بتنوع الأسباب التي تبعث له الأسى والحزن في الأسر، فشكا تنكُّرَ أهله وأصحابه، وعاتبهم، وشكا من الوشاة و الحساد، وشكا من الأسر وذلته، ومن الغربة والبعد عن الأهل والوطن،كان كثيراً ما يتجه بالشكوى إلى الله سبحانه ، يقول :

إلى الله أشكو أننا بمنازل تحكم في آسادهن كلاب[3]

(١) ديوان أبي فراس: ص ٢٨٦ .
(٢) المصدر السابق: ص٨٤.
(٣) المصدر السابق: ص٢٥ .

ويقول :

يا فارج الكرب العظيـ ـم وكاشف الخطب الجليل

كن يا قوي لذا الضعيـ ـف ويا عزيز لذا الذليل![1]

كما أكثر معاتبة سيف الدولة، وقد كان السبب الرئيس في هذه المعاتبة هو تأخر الفداء، وقد ساد هذا المطلب معظم الروميات، محاولاً أن يستميل قلب ابن عمه؛ كي يخلصه من الأسر، فيصفه بكل حسن وجميل، وربما طلب من الفداء صراحة، لكنه يظل محافظاً على اعتداده بذاته :

دعوتك للجفن القريح المسهد لدي وللنوم القليل المشرد

دعوتك والأبواب ترتج دوننا فكن خير مدعوٍ وأكرم منجد

فمثلك من يدعى لكل عظيمة ومثلي من يفدى بكل مسوّد[2]

وقد شكا أبو فراس من قومه، مازجاً ذلك بشيء من الفخر، مشبهاً نفسه بالفداء لهم، يدافع عنهم، وعن نسائهم، ويفديهم بنفسه، يقول :

تمنيتم أن تفقدوني وإنما تمنيتم أن تفقدوا العز أصيدا

إلى الله أشكو عصبة من عشيرتي يسيئون لي في القول غيبا ومشهدا

وإن حاربوا كنت المجن أمامهم وإن ضاربوا كنت المهند واليدا

يودون أن لا يبصروني سفاهة ولو غبت عن أمر تركتهم سدى[3]

ويتنكر له الأصحاب فيبعث إليهم متعجباً من الدنيا التي لم تبق له صديقاً واحداً يرعى الود و الصفاء في القرب والبعد، يقول :

أما ليلة تمضي ولا بعض ليلة أُسرَّ بها هذا الفؤاد المفجعا ؟

أما صاحب فرد يدوم وفاؤه فيصغي لمن أصغى ويرعى لمن رعى؟

(١) ديوان أبي فراس: ص ٢٣٢.
(٢) المصدر السابق: ص٨٢ و٨٣.
(٣) المصدر السابق: ص٩٠.

أفي كل دار لي صديق أوده إذا ما تفرقنا حفظت وضيعا؟

أقمت بأرض الروم عامين لا أرى من الناس محزونا ولا متصنعا[١]

ومع طول الأسر، وتأخر الفداء، ضاقت روح الشاعر المنكسرة من هؤلاء الناس، وزادت شكواه منهم، حتى شبههم بالذئاب التي ترتدي ثياب البشر، يقول :

بمن يثق الإنسان فيما ينوبه ومن أين للحر الكريم صحاب؟

وقد صار هذا الناس إلا قليلهم ذئاباً على أجسادهن ثياب

تغابيت عن قومي فظنوا غباوتي بمفرق أغبانا حصى وتراب[٢]

ولم يزل أبو فراس وهو في أسره يتشكى من الحساد ويعرّض بهم، ويبين كثرتهم، وكيف أوغروا صدر سيف الدولة عليه، يقول :

لمن جاهد الحساد أجر مجاهدٍ وأعجز ما حاولت إرضاء حاسد

ولم أر مثلي اليوم أكثر حاسدا كأن قلوب الناس لي قلب واجد[٣]

ومن يمعن النظر في شكوى أبي فراس يجدها صادقة نابعة من روح عاث فيها الأسر تحطيماً، وأثقل عليها ، فاستجابت مشاعرها وعواطفها إلى تلك الحالة التي هو فيها، وصدرت عنها في أغلب أشعاره، فخرج شعره مصبوغاً بصبغة الأسى والحسرة بعد أن أثقلته الجراح التي نالته وهو أسير، وما أجمل قوله :

مصابي جليل والعزاء جميل وظني بأن الله سوف يديل

جراح تحاماها الأساة مخوفة وسقمان باد منهما ودخيل

وأسر أقاسيه وليل نجومه أرى كل شيء غيرهن يزول[٤]

واستمع إليه في قمة امتزاجه بالألم، يناجي حمامة حطت قريباً من سجنه، ويطارحها أشواقه، ويشكو إليها ما أصابه :

أقول وقد ناحت بقربي حمامة أيا جارتا هل تشعرين بحالي ؟

(١) ديوان أبي فراس: ص١٨٤.
(٢) المصدر السابق: ص٨٧.
(٣) المصدر السابق: ص٣٦.
(٤) المصدر السابق: ص٢٣٢.

معاذ الهوى ما ذقت طارقة النوى ولا خطرت منك الهموم ببال؟

أتحمل محزون الفؤاد قوامه على غصن نائي المسافة عال

أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا تعالي أقاسمك الهموم تعالي[1]

لقد تمكن أبو فراس أن يطور موضوع الشكوى والعتاب في رومياته، وذلك بمنحه أبعاداً إنسانية تمازج فيها انكساره واعتداده، ودَعَمَه في ذلك شاعريته العالية، وعاطفته الصادقة؛ إذ اتسمت شكواه في الروميات بصدق في القول والانفعال مع الأحداث والمواقف، وبتصوير نفسه وما يخالجها من مشاعر وأحاسيس تصويرا دقيقاً، غُلِّف برداء من أسى وحزن، وكانت شكواه مصحوبة في غالب الأحيان بالفخر، وفي البعض الآخر بالحكمة التي تتناثر بين أبيات الشكوى.

وقد افتتح أبو فراس بعض رومياته بالشكوى والعتاب، تجاوباً مع حالته النفسية التي كان واقعاً تحت وطأتها، ومن ذلك قوله مخاطباً سيف الدولة :

زماني كله غضب وعتب وأنت علي والأيام إلبٌ

وعيش العالمين لديك سهد وعيشي وحده بفناك صعب[2]

ثالثاً / الحنين والغربة :

الغربة عن الوطن والأحباب ملهم رئيس إلى قول الشعر الصادق المتسم بالحرارة وصدق الانفعال، وخاصة إذا كان الشاعر واقعا في براثن مرض أو أسر[3].

وفي الروميات اشتعل الحنين المتوقد من نار الغربة التي اصطلى أبو فراس أوارها، حتى لفحت روحه، وأحرقت قلبه، ولم يكن هذا غريباً، فالشاعر الأمير ذو النفس الأبية، يبتعد عن وطنه، ويقبع أسيراً ذليلاً، فكان في حنينه يغلب عليه طابع الأسى و الحسرة لما آلت إليه نفسه، فهو الفارس الحر الذي يتطلع إلى الآفاق، ويصادم الشجعان، يقع في هذا الكرب الذي لا يتحمله إلا الأشداء من الرجال، هذا كله ساعد على طبع قصائده بطابع الأسى والحنين والشعور الحاد بالغربة، فلا تكاد تخلو قصيدة من قصائده من مثل هذا الشعور، وكيف لا يكون ذلك، وقد

(١) ديوان أبي فراس: ص ١٣٨.
(٢) المصدر السابق: ص ٣١.
(٣) انظر: الغربة في الشعر العربي: ص١٥١، أمين صادق، دار الفكر العربي، ط١، دمشق، ١٤٠٧هـ.

أصبح غريباً يكتوي بنار الغربة في بلاد العدو، ويحن إلى الحرية التي طالما تمتع بها في ربوعه وملاعب صباه وشبابه بين حلب ومنبج، ويزداد حنينه إلى أهله فتفيض به بعض الروميات :

لأيكـــــــــــــم أذكـــــــر وفـــي أيـــــــكم أفكـــر؟

وكـــــــم لي علـــــى بلـــدي بكـــــــاء ومستعبـــــــــــر

ففـــــــــي حلـــــــب عدتـــــــي وعـــــــــزي والمفخـــــــر[1]

فهو يحن إلى بلده وديارة في حلب التي فيها عدته وقومه وأهله، راجياً رضاهم عنه، كما يحن لأولاده الصغار الذين يفتقدون عطفه وحبه لهم .

وقد أكثر أبو فراس من الحنين إلى أمه، بيد أن نبرة من التعقل والنضج العاطفي تسيطر عليه حينما يحن إليها، فنراه يوصيها بالصبر والجلد، والإيمان بقضاء الله، والتأسي بمن سبقها من النساء الصادقات، ولعل هذا يعود إلى شدة حبه لأمه، وشفقته عليها :

وإن وراء الستر أماً بكاؤها عليّ وإن طال الزمان طويل

فيا أمتا لا تعدمي الصبر إنه إلى الخير والنجح القريب رسول

ويا أمتا لا تخطئي الأجر إنه على قدر الصبر الجميل جزيل

أراد ابنها أخذ الأماني فلم تجب وتعلم علما أنه لقتيل[2]

ويحن أبو فراس إلى أرضه ووطنه حنيناً حاراً تشعر بصدقه وتوقده، إنه الحنين الذي يعكس عميق شعوره بالغربة، وشديد أثرها في روحه المنكسرة، حتى أصبح متعلقاً بأرض الشام وسكانها من الأحبة الذين لا يستطيع أن يجد لهم بديلاً، ولا يستطيع نسيانهم مهما تطاول الزمن، يقول:

يعز على الأحبة بالشآم حبيب بات ممنوع المنام

وإني للّصبور على الرزايا ولكن الكلام على الكلام[3]

(١) ديوان أبي فراس: ص١٥٣.
(٢) المصدر السابق: ص٢٣٢.
(٣) المصدر السابق: ص٢٧٥.

ويقول :

إن في الأسر لصباً دمعه في الخد صبّ

هو في الروم مقيم وله في الشام قلب

مستجد لم يصادف عوضا ممن يحب[1]

.

وكثيراً ما يذكر أبو فراس في رومياته المسافات التي تفصله عن قومه، وكيف تثير في نفسه الحنين إلى هذا الوطن، وهذه المسافات –وإن كانت حقيقية ومحسوسة- إلا أنها تؤدي دور المعادل الموضوعي لحجم الغربة والحنين اللذين يعتلجان في نفس الشاعر :

وما كنت أخشى أن أبيت وبيننا خليجان والـــــــدربُ الأشـم وآس

ولا أنني أستصحب الصبر ساعة ولي عنك منّـــاع ودونك حابس[2]

ويتضح أثر الغربة في روح الشاعر بشكل أكبر حينما تحل عليه مناسبة فرح وسرور، فالعيد – وهو رمز فرح – يتحول إلى شيء غير محبوب، بسبب وحشة الدار، وغربة الروح التي نالها من الأذى ما نالها :

يا عيد ما عدت بمحبوب على معنى القلب مكروب

يا عيد قد عدت على ناظر عن كل حسن فيك محبوب

يا وحشة الدار التي ربها أصبح في أثواب مربوب

قد طلع العيد على أهله بوجه لا حسن ولا طيب[3]

ومهما يكن من شيء، فقد كانت غربة أبي فراس في رومياته موقدة لحنينه الذي كان أنموذجاً مضيئاً للشعر الصادق الذي يرسم ملامح الحب و الانتماء للأرض والأحبة، أينما كانوا .

(١) ديوان أبي فراس: ص٣٠.
(٢) المصدر السابق: ص١٧٦.
(٣) المصدر السابق: ص٣٤.

رابعاً / الفقد :

عاني أبو فراس من فاجعة موت أمه وهو في أسره، ونضحت إحدى روملياته بشعور طافح بالفقد والأسى واللوعة حين رثاها باكياً منكسراً، وهو في رثائه أمه يبدو كالطفل المذهول الذي لا يدري كيف يصنع وقد فعل فيه الفقد فعلته، وتكالبت عليه ظروف الأسر والبعد، ولذلك بكاها بكاء حاراً ومؤثراً :

أيا أم الأسير سقاك غيث بكره منك ما لقي الأسير

أيا أم الأسير سقاك غيث تحيّر لا يقيم ولا يسير

أيا أم الأسير سقاك غيث إلى من بالفدا يأتي البشير؟

أيا أم الأسير لمن تربى وقد متّ الذوائب و الشعور؟[1]

إن تكرار تركيب (أيا أم الأسير)، وتكرار الاستفهامات بعد هذا التركيب، يعكسان حالة الذهول التي يعانيها الشاعر المفجوع بفقد أعز البشر إليه، ثم لا يستطيع أن يفعل شيئاً، فتعتريه حالة من فقد الصواب، بيد أن روحه في نهاية التجربة تهدأ، ويجنح إلى التعقل، فيختم القصيدة بالعزاء، محاولاً تسلية نفسه، ودفعها إلى الصبر :

تسلي عنك أنا عن قليل إلى ما صرت في الأخرى نصير[2]

وإذا استثنينا رثائيته أمه، لا نجد روح الفقد حاضرة في الروميات، إلا ما كان من تعزيته سيف الدولة في وفاة أخته، وفيها بدا أبو فراس هادئاً متزن الشعور :

أوصيك بالحزن لا أوصيك بالجلد جل المصاب عن التعنيف والفند

إني أجلك أن تكفى بتعزية عن خير مفتقد يا خير مفتقد[3]

(١) ديون أبي فراس: ص٧٥.
(٢) المصدر السابق: ص٧٨.
(٣) المصدر السابق: ص٨٩.

فهو يوصيه بالحزن؛ لعظم الخطب الذي حلّ به، فهي خير من فقد، وهو خير من افتقد، ويجدها الشاعر فرصة سانحة كي يبث أحزانه، فهو يجد من الحزن والجزع ما يجده سيف الدولة، فالبعد لم يعمل على انتقاص المودة بل زادها، وزاد معها الحزن والأسى، وهو يذكر أنه مشترك مع سيف الدولة في حزنه وفقده، فيقول :

بي مثل بك من حزن ومن جزع وقد لجأت إلى صبر فلم أجد

لأشكرنك في اللأواء إن طرقت كما شكرتك في النعماء والرغد

أبكي بدمع له من حسرتي مدد وأستريح إلى صبر بلا مدد

ولا أسوغ نفسي فرحة أبدا وقد عرفت الذي تلقاه من كمد[1]

وواضح أن جنوح الرؤية من الرثاء إلى الشكوى قد أسهم في إضعافها، وأثر كثيراً في صدقيتها.

كما كتب من الأسر قصيدة ثالثة رثى بها ابن سيف الدولة، وعزاه على فقده، وأوصاه بالصبر والتسليم :

يا عمر الله سيف الدين مغتبطا فكل حادثة يُرمى بها جلل

من كان عن كل مفقود لنا بدلا فليس منه على حالاته بدل

يبكي الرجال وسيف الدين مبتسم حتى عن ابنك تُعطى الصبر يا جبل

لم يجهل القوم منه فضل ما عرفوا لكن عرفت من التسليم ما جهلوا[2]

ونلاحظ قله شعر الفقد في روميات أبي فراس، فهو مقصور على أقرب أقاربه؛ أمه، وأخت سيف الدولة وابنه، فصدر في رثائيته أمه عن حب شديد، وانفعال صادق، وتأثر بالغ بهذا المصاب، وفي رثائه غيرها حاول مزج الرثاء بالاستعطاف وطلب الفداء .

(١) ديوان أبي فراس: ص٩٠ .

(٢) المصدر السابق: ص٢٠٥.

خامساً / تذكر الأحبة والوقوف على الأطلال :

لم يكن تذكر الأحبة وأطلالهم موضوعاً رئيساً في الروميات، وإنما كان ثانوياً يأتي في مقدمات بعض القصائد، ولا يتعدى كونه عدة أبيات يفتتح بها قصيدته كعادة الشاعر العربي القديم، فقد استهل إحدى رومياته بالنسيب والوقوف على الأطلال والرسوم الدارسة، ثم تحدث عن مصاحبة السهر، وتحدث فيها عن ربوع العامرية، ولم تبلغ هذه المقدمة سوى سبعة أبيات، مع أن القصيدة تربو على ستين بيتاً، يقول :

أبيت كأني للصبابة صاحب ... وللنوم مذ بان الخليط مجانب

وما أدعي أن الخطوب تخيفني ... لقد خيرتني بالفراق النواعب

ولكنني مازلت أرجو وأتقي ... وجدّ وشيك البين و القلب لاعب

وما هذه في الحب أول مرة ... أساءت إلى قلبي الظنون الكواذب

عليّ لربع العامرية وقفة ... تمل علي الشوق والدمع كاتب

فلا وأبي العشاق ما أنا عاشق ... إذا هي لم تلعب بصبري الملاعب

ومن مذهبي حب الديار لأهلها ... وللناس فيما يعشقون مذاهب[1]

وقد وقف في رومية أخرى على الرسوم والأطلال، وأظهر فيها حزنه وبكاءه، وكيف كان يذرف الدموع على هذه الأماكن التي تحولت إلى أماكن خربة بعد أن كانت ساحات للقتال، يقول:

أتعز أنت على رسوم مغاني ... فأقيم للعبرات سوق هوان

فرض عليّ لكل دار وقفة ... تقضي حقوق الدار والأجفان

لولا تذكر من هويت بحاجر ... لم أبك فيه مواقد النيران

ولقد أراد قبيل طارقة النوى ... مأوى الحسان ومنزل الضيفان

ومكان كل مهند ومجر كـ ... ـل مثقف ومجال كل حصان

نشر الزمان عليه بعد أنيسه ... حلل الفناء وكل شيء فان

ولقد وقفت فسرني ما ساءني ... فيه وأضحكني الذي أبكاني

ورأيت في عرصاته مجموعةً ... أسد الثرى وربائب الغزلان

منع الوقوف على المنازل طارق ... أمر الدموع بمقلتي ونهاني[2]

(١) ديوان أبي فراس: ص٣٥.

(٢) المصدر السابق: ص٣٢.

وألاحظ هنا طول المقدمة الطللية بشكل غير معتاد؛ إذ بلغت ستة عشر بيتاً من أربعة وستين بيتاً اشتملت على عدة أغراض، وهذا الطول لم يُعهد عند أبي فراس وهو في الأسر .

وهناك مقدمات لم تشتمل على الوقوف على الأطلال و الرسوم، بل بدأها بالغزل الحزين، وخير مثال على ذلك ما بعث به من أبيات إلى سيف الدولة بعد أن امتنع عن إخراجه إلا بفداء عام، يقول في مقدمتها:

أما لجميل عندكن ثواب ولا لمسيء عندكن متاب؟[١]

فهذا هو مطلع القصيدة الذي ظهر فيه مبلغ حزن أبي فراس، ثم تراه يعتب على قلبه، وكيف ضل في حبه لهذه المرأة، منطلقاً من رؤية عربية عتيقة تجعل من الأنثى رمزاً للحب والتعلق، يقول:

لقد ضل من تحوي هواه خريدة وقد ذل من تقضي عليه كعاب

ولا تملك الحسناء قلبي كله وإن شملتها رقة وشباب

وأجري فلا أعطي الهوى فضل مقودي وأصغر لا يخفى عليّ صواب[٢]

ويتغزل في أخرى غزلاً يختلف عما سبق، فهو هنا يذرف الدموع، ولم يستطع أن يحول دونها، مصوراً شدة حزنه و عتبه على سيف الدولة؛ لتأخره عن فدائه، وتأخر أجوبته عنه، فلم يستطع الصبر :

أبى غرب هذا الدمع إلا تسرعا ومكنون هذا الحب إلا تضوعا

وكنت أرى أني مع الحزم واحد إذا شئت لي ممضي وإن شئت مرجعا[٣]

ومن الواضح أن الاستفتاحات الطللية والوجدانية للروميات كانت مجرد مدخلٍ للبوح بحبه وعتبه على سيف الدولة، ويظهر هذا جلياً في رائيته المشهورة التي مطلعها:

أراك عصى الدمع شيمتك الصبر أما للهوى نهي عنك ولا أمر؟

بلى أنا مشتاق وعندي لوعة ولكن مثلي لا يذاع له سر

إذا الليل أضواني بسطت له يد الهوى وأذللت دمعا من خلائقه الكبر

تكاد تضيء النار بين جوانحي إذا هي أضنتها الصبابة والفكر[٤]

(١) ديوان أبي فراس: ص٢٣ .
(٢) المصدر السابق: ص٢٤.
(٣) المصدر السابق: ص١٨٣.
(٤) المصدر السابق: ص١٥٧.

وفيها إجادة وحسن، وقدرة في الصياغة الشعرية لم تبلغها في رأيي أي قصيدة أخرى من قصائده.

وينتهي أبو فراس من غزله محسناً التخلص إلى الفخر، ويستمر يفتخر بنفسه وشجاعته إلى أن يختم القصيدة بالفخر بقومه وآبائه وأجداده، ومن الواضح أن أبا فراس لم يقصد بغزله حبيبة بعينها، بل لم يكن يتحدث عن امرأة، وإنما كان يرمز إلى ابن عمه سيف الدولة، "وأكاد ألمس فيها نوعا من الرمز بالإيماء، وبهذا نستطيع أن نفهم كيف أنها عللته بالوصل حينا، وكيف تجاهلته، ويقصد بذلك سيف الدولة؛ لأنه هو الذي مناه بالوصل والفداء، ولكنه تجاهله بعد ذلك"[(١)]، فالغزل هنا رمزي، "والوعد الذي قال أبو فراس إن الموت دونه إنما هو وعد سيف الدولة بفداء ابن عمه"[(٢)].

ومهما يكن من شيء، فإن ذكر الأحبة وأطلالهم جاء عارضاً في الروميات، كما أن غزل أبي فراس قد ضعف وضمر في رومياته، ولم نر ذلك التصوير الذي كان شائعاً قبل الأسر، وهذا أمر طبعي، يتسق مع موقف الشاعر الأسير، والحالة التي يعانى منها في أسره .

سادساً / الحكمة :

يحضر شعر الحكمة في بعض روميات أبي فراس، وقد استوحى حِكمه من تجربته الأليمة في الأسر؛ فهو يعبر عن فكرة مرت بخاطره استوحاها من حادث معين ، فسجلها وصاغها بأسلوبه، وكان يرجع لها كلامه من حين لآخر، وتأتي الحكمة في الروميات في صياغة مختصرة ومركزة، ولا تتجاوز البيت والبيتين، ومنها ما كان يتحدث به عن فخره ومكانته بين قومه، يقول:

سيذكرني قومي إذا جد جدهم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر[(٣)]

ومن حكمه المأثورة قوله:

هو الموت فاختر ما علا لك ذكره فلم يمت الإنسان ما حيي الذكر

وإن مت فالإنسان لابد ميت وإن طالت الأيام وانفسح العمر[(٤)]

(١) شاعر بني حمدان: ص١٦١.
(٢) في الأدب العباسي: ص٣٩٣، ٣٩٤.
(٣) ديوان أبي فراس: ص١٦١.
(٤) المصدر السابق نفسه.

فالإنسان باق بأفعاله التي ترفع من شأنه حتى بعد وفاته، و هو يبقى حياً ما بقي ذكره سائراً بين الناس، ثم نرى تسليمه للقدر ولنهاية الإنسان المحتومة، ونراه يستخدم الحكمة في الرد على بعض العذّال الذين لاموه على إقدامه الذي أدى به إلى الأسر:

يقولون لم ينظر عواقب أمره ومثلي من تجري عليه العواقب

وهل يدفع الإنسان ما هو واقع وهل يعلم الإنسان ما هو كاسب

وهل لقضاء الله في الخلق غالب وهل لقضاء الله في الخلق هارب[1]

وفي قصيدة أخرى يتكلم عن دار الفناء، وأنه لن يُخلَّد فيها أحد، ولن يبقى إلا وجهه -سبحانه وتعالى- :

هيهات ما في الناس من خالد لا بد من فقد ومن فاقد[2]

ويبين أن الجهول مغتر بالدنيا مع أن الناس إذا حَمّ القضاء عليهم فهم سواسية، وكلهم إلى التراب يقول :

بنو الدنيا إذا ماتوا سواء ولو عمر المعمر ألف عام[3]

وإيمان أبي فراس ظاهر جلي فيما يتضح من حكمه تلك، ومن ذلك قوله :

ولكن إذا حم القضاء على امرئ فليس له بر يقيه ولا بحر[4]

ولاشك أن الأسر قد ألهم الشاعر العديد من الحكم التي ضمنها روملياته، من ذلك قوله يذكّر أمه بالصبر:

أوصيك بالصبر الجميل فإنه خير الوصية[5]

المبحث الثالث/ الرؤية الشعرية في الروميات :

لقد استمدت الروميات رؤيتها الشعرية من الجوِّ الذي كان أبو فراس يعيش فيه في الأسر،

(١) ديوان أبي فراس: ص٣٦.
(٢) المصدر السابق: ص٧٦.
(٣) المصدر السابق: ص٢٤٠.
(٤) المصدر السابق: ص١٦٠.
(٥) المصدر السابق: ص١٣٨.

وهو جو يحيط به الأسى والحزن والآلام والفقد؛ إذ تستطيع أن تشعر وتحس بوجود هذا الجو عندما تقرأ الروميات، فهو يسري في روحها، ولو قرأ المتلقي الخالي الذهن بيتاً لأبي فراس مما سوى رومياته، وآخر من رومياته، فلن يخطئ غالباً في تمييز بيت الروميات عن البيت الآخر؛ ذلك أن الروميات تتضح بشعور إنساني عميق وصادق يندر وجوده .

وحين أتحدث عن الرؤية الشعرية في الروميات فلا يعني هذا أني أفصل المعنى عن اللفظ، أو المضمون عن الصورة والشكل، بل إن "الفصل بين الجانبين غير ممكن، فهما وجه النموذج الأدبي، كالنقد له وجهان، وهو لا يكون بدونهما، أو يقدر بهما جميعاً، فليس هناك محتوى وصورة، بل هما شيء واحد، ووحدة واحدة، إذ تجمع في نفس الأديب الفنان مجموعة من الأحاسيس ويأخذ في تصورها بعبارات يتم بها عمل نموذج أدبي.." [1] .

ونلمس في الروميات رؤية شعرية عامة لا تكاد تخلو منها قصيدة، كدعوة سيف الدولة إلى المسارعة في افتداء أبي فراس، والشكوى من الأصحاب، والحنين إلى الأهل والوطن، وتلك الرؤى المتنوعة هي التي تميز الروميات عن غيرها من شعر أبي فراس .

واصطبغت رؤى أبي فراس ومضامين شعره بصبغة العصر الذي يعيش فيه، والبيئة التي نشأ فيها؛ إذ بين الشعر والعصر، وبين الشعر والبيئة معانٍ جديدة أصبحت مظاهر جديدة وغير مألوفة في شعر الشاعر، وبيئة الروميات هي بيئة السجن الذي لن يصدر عنه غير الحزن والأسى والجراح؛ فلذلك نجد معاني الروميات المبتكرة استمدت من هذا الواقع الذي كان يعيشه، فمن تلك المعاني، شكواه من الوشاه الذين يتناقلون الكلام فلا يلقى له بالاً، وشكواه من الوضع الذي يعيش فيه، يقول:

وربّ كلامٍ مرّ فوقَ مسامِعي كمَا طنّ في لوحِ الهجير ذبابُ
إلى اللّهِ أشكو أننا بمنازلٍ تحكمُ في آسادهِنّ كلابُ[2]

وعندما تأخر سيف الدولة عن افتداء الشاعر، عبر عن هذا التأخير مخاطباً سيف الدولة :

ولكنّ بنَا منهُ بكفَي صارمٌ وأظلمَ في عينيّ منهُ شهابُ
فأحوطُ للإسلامِ أنّ لا يضيعني وَلي عَنكَ فِيهِ حوطةً ومنابُ[3].

(١) في النقد الأدبي: ص١٦٣، شوقي ضيف، دار المعارف، ط٣، مصر، ١٩٨٤م .
(٢) ديوان أبي فراس: ص٢٥ .
(٣) المصدر السابق: ص ٢٥، ٢٦ .

ومن تلك المعاني التجديدية ما عبر بها عن غربته وشوقه إلى أهله ووطنه، وخاصة إلى أمه التي يرى رضاها أعظمَ ما يدخره، وكأنها زلفى تشفع له يوم القيامة في المحشر، فيقول:

وفـــي منَبْـــجٍ مِـــنْ رضـــا ه أنفـــسُ مـــا أذخـــرُ
ومـــن حبّـــهُ زلفـــةَ بِهـــا يكـــرمُ المحشـــرُ [1]

وتشعر أحياناً أن أبا فراس – بتأثير مباشر من معاناته مع الأسر – يمعن النظر في الأفكار، فيحيلها من خلال وجدانه إلى مشاعر ذاتية ملوّنة بخلجات النفس، فإذا هي حية نابضة بالجمال[2]، تأمل قوله:

ولله عندي في الإسار وغيره مواهب لم يخصص بها أحد قبلي
حللتُ عقوداً أعجز الناس حلها وما زال عقدي لا يذم ولا حلّي
وما شاء ربي غير نشر محاسني وأن يعرفوا ما قد عرفت من الفضل [3]

فهو هنا أطال النظر في فكرة الأسر، وتأخر أهله في فك إساره، فرأى ذلك فضلاً له عليهم وتقدمة، وهي رؤية طريفة، وتسويغ إنساني مبتكر .

بيد أن أبا فراس قد يقف أمام الفكرة فيعجز عن مزجها بشعوره ووجدانه، فيجيء شعره أقرب إلى النظم، وهذا نادر في الروميات، كقوله:

أهـــدى إلـــيّ صبـــابة وكآبـــة فأعـــادني كلـــف الفؤاد عميـــدا
إن الغـــزالة والغـــزالة أهـــدتا وجهـــاً إليك إذا طلعـــت وجيـــدا[4]

ومعلوم أن النص الشعري ليس مجرد ألفاظ تُرصّ، بل هو انفعال مُحلَّى بمكنة فنية تحيله أثراً أدبياً غنياً بالقيم جديراً بالخلود [5] .

ومن مزايا الروميات الفنية على مستوى الرؤية الشعرية وضوحها وقدرتها على الإبانة عن الحالة النفسية التي كان الشاعر يعانيها، ولستُ أعني بالوضوح المباشرة والسطحية ولكن "أن يكون الكلام ظاهر الدلالة على المعنى المراد، وذلك شرط أساسي للكلام البليغ المؤثر" [6].

(١) ديوان أبي فراس: ص١٥٣
(٢) انظر: النقد التطبيقي والموازنات: ص١٢٣، محمد الصادق عفيفي، مكتبة الخانجي، ط١، القاهرة، ١٣٩٨هـ.
(٣) ديوان أبي فراس: ص٢٣٧.
(٤) المصدر السابق: ص١٠٠.
(٥) انظر: إضاءات في النقد الأدبي؛ ص١١٧، عادل الفريجات، دار أسامة، ط١، دمشق، ١٩٨٥م.
(٦) أسس النقد الأدبي عند العرب: ص٤٧٣، أحمد بدوي، مكتبة نهضة مصر، ط٣، مصر، ١٩٦٤م.

وقد جاءت الرؤى الشعرية في الروميات واضحة الدلالة، معبِّرة أصدق تعبير عن المعاناة التي عاشها أبو فراس، وكفى بنا قوله:

يقولون لي بعت السلامة بالردى فقلت أما والله ما نالني خسر

وهل يتجافى عني الموت ساعة إذا ما تجافى عني الموت والأسر؟

هو الموت فاختر ما علا لك ذكره فلم يمت الإنسان ما حيي الذكر [1]

دليلاً على ذلك، فوضوح الرؤية وشرفها أعطى الأبيات رونقاً خاصاً، ورفع درجتها الفنية؛ إذ لا تلحظ فيها غموضاً ولا إبهاماً .

ولم أرصد في الروميات أي مظهرٍ من مظاهر الغموض أو التكلف في الرؤية الشعرية؛ وربما يكون هذا شأن شعر أبي فراس كله، فهو يبتعد عن المعاضلة والتعقيد والغموض في سائر شعره، بيد أن هذا الملمح أوضح ما يكون في رومياته .

وفي سياق الحديث عن الرؤية الشعرية، يجدر بهذا البحث أن يختبر التجربة الشعرية والعاطفة الإنسانية في الروميات؛ إذ تشكلان معياراً مهما لعمق الرؤية وإقناعها :

(١) ديوان أبي فراس: ص١٦٠ .

أ – التجربة الشعرية:

تُعرَّف التجربة الشعرية بأنها "الحالة التي تلابس الشاعر، وتوجّه باصرته أو ذهنه أو بصيرته إلى موضوع من موضوعات، أو واقعة من واقعات الدنيا، أو مرأى من مرائي الوجود، وتؤثر فيه تأثيراً قوياً تدفعه في وعيٍ أو غير وعي إلى الإعراب عما يرى أو يشهد أو يتأمل"(١) .

فالتجربة تقوم على أركان ثلاثة؛ الحدث والوجدان والصياغة الشعرية، أي أنها تلاحم عضوي بين الشعور والتعبير، وتلاقح بين الوجدان والفكر .

وبعض الدارسين يفرِّق بين التجربة الشعرية والشعورية، ويرى أن الأولى تعبير بالشعر عن الثانية التي يعدها أمراً معنوياً (٢) .

وللتجربة أنواع مختلفة تبعاً لتنوع التجارب البشرية، وأبرز أنواعها التجربة الإنسانية التي يكون الإنسان محورها الرئيس، ومنها أيضاً التجربة الاجتماعية والتاريخية والخيالية (٣) .

على أن التجربة الشخصية أو الذاتية، وهي التي يكون المبدع قد عاشها واقعاً في حياته، ثم تنفسها شعراً، تُعَدّ هي الأبرز والأظهر في روميات أبي فراس؛ "فهو من أولئك الشعراء الذين يبكون ذواتهم، ويعبِّرون عن معاناتهم الشخصية ، فتجربته الشخصية تكاد في معظمها تكون لصيقة به، تخصّه، وتتحدث عنه" (٤) .

ولا شك أن التفاعل مع الحدث، ومزجه بالحس والوجدان هو الوقودُ المشعل للتجربة، وأهم أسرار وجودها، وهو الرابط الرئيس بين الحدث – نفسياً كان أم كونياً – والصياغة الفنية .

وأبو فراس من الشعراء الذين تفاعلوا مع ما يجري في حياتهم من وقائع وأحداث وتجارب، وقد استطاع التعبير عنها في شعره أصدق تعبير، يعينه في ذلك موهبة فطرية، ومكونات ثقافية، وصدق شعوري، كلها كَوَّنت روافد غذت تجربته الشعرية .

ولقد مرت بأبي فراس في أسره تجارب متعددة ومؤلمة، عاشها وتفاعل معها، فعبر عنها بقصائد شعرية رائعة، استطاع أن يوصلها إلى إحساس كل من تلقاها.

وتنضح الروميات بتجربة شعورية صادقة ومتألقة، وخير مثال على ذلك قصيدته التي أرسلها إلى أمه حين ثقلت عليه الجراح، ومطلعها:

مصابي جليل والعزاء جميل وظني بأن الله سوف يديل(٥)

(١) الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث: ص٢٩و٣٠، مصطفى السحرتي، مطبوعات تهامة، ط٢، جدة، ١٤٠٤هـ.
(٢) انظر: التجربة الشعرية عند ابن المقرّب: ٦٧، عبده قلقيلة، النادي الأدبي بالرياض، ط١، الرياض، ١٤٠٧هـ.
(٣) للاستزادة والتفصيل في أنواع التجربة الشعرية، راجع: الأدب ومذاهبه: ص١٢ وما بعدها ، محمد مندور، دار نهضة مصر، القاهرة، (د.ت).
(٤) أبو فراس الحمداني الشاعر الأمير : ص١٤٥ .
(٥) ديوان أبي فراس: ص٢٣٢ .

فقد استهل قصيدته بالحديث عن مصابه وجراحه وشوقه وغربته، وغدر صحبه به، بعد أن وقع أسيراً، وقد استشهد بالأحداث التاريخية على ما قال، وخص أمه بالحديث فدعاها إلى الصبر والتمثل بذات النطاقين، كما دعاها إلى التسليم بقضاء الله وقدره، فالإرادة بيد الله وحده، وهكذا تبدو القصيدة مترابطة في أفكارها، ومعبرة عن حدث واحد تحدث فيه أبو فراس إلى أمه [١].

وفعل أبو فراس مثل هذا في قصيدته "الحمامة النائحة" [٢] التي عبر فيها عما كان يحس به من مشاعر الأسى والحزن، وما يقفه من مواقف يبعد فيها نفسه عن الهوان والذل فلا يذرف دمعة الغالي، على الرغم مما كان يحيط به، وبهذا تبدو القصيدة، أو المقطوعة معبرة عن فكرة واحدة، وتجربة واحدة، عاشها الشاعر حقاً، وارتبطت بنفسيته برباط وثيق وعبرت عنها بشكل واضح.

ولكي تكون التجربة ذات تأثير يجب أن يتوافر فيها صدق الوجدان ، ذلك أن التجربة إنما هي "إفضاء بذات النفس بالحقيقة كما هي في خواطر الشاعر وتفكيره في إخلاص يشبه إخلاص الصوفي لعقيدته، ولم تصدر التجارب الشعرية العالمية الخالدة إلا عن تجارب عاش لها أصحابها، وغاصوا في أعمق أنفسهم يتأملون ويسجلون المشاعر والحقائق فجاءت صوراً نفسية عميقة" [٣].

وقد وجدنا في روميات أبي فراس تأثيراً عميقاً بأحاسيس المتلقين ومشاعرهم، ذلك أن الهم الإنساني العميق الذي اشتغل عليه أبو فراس بصدق وإحساس عال أسهم في ذلك التأثر الجمعي للمتلقين، وهذا دليل على صدق عواطفه في وصفه لتلك التجارب الإنسانية العميقة .

وتبدو عواطفه الصادقة المتنوعة جلية في رائيته المشهورة:

أراك عصي الدمع شيمتُك الصبرُ أما للهوى نهي عليك ولا أمر[٤]

وهي تتنوع بين عواطف كبرياء الحب ومذلته، والشوق إلى الحبيبة، والتعلل بوصلها ثم الإنكار عليها، والتشكي منها لجفائها وتنكرها ، وما إلى ذلك من العواطف والانفعالات.

ولو أراد الباحث تسليط الضوء بشكل أكبر على تجربة أبي فراس الشعرية في رومياته، من خلال أحد نصوصه المتألقة (الحمامة النائحة) التي أشرتُ إليها آنفاً، فإنه سيجد التحاماً حقيقياً بين الفن والحدث في عمق تلك الرائعة؛ إذ استطاع أبو فراس أن يتهيأ فكرياً وشعورياً ووجدانياً للتفاعل مع الحدث الصغير، وهو مشهد حمامة تنوح بقربه:

(١) انظر: أبو فراس الحمداني حياته وشعره: ص٣٣٦ .
(٢) ديوان أبي فراس: ص٢٣٨ .
(٣) النقد الأدبي الحديث: ص٣٦٤، محمد غنيمي هلال، دار النهضة، ط٤، مصر، ١٩٧٩م .
(٤) ديوان أبي فراس: ص٥٧ .

أقول وقد ناحت بقربي حمامة أيا جارتا لو تشعرين بحالي
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا تعالي أقاسمك الهموم تعالي
تعالي تري روحاً لديّ ضعيفة تُرددّ في جسم يُعذّب بال
أيضحك مأسور وتبكي طليقة؟! ويسكت محزون ويندب خال؟![1]

فالعاطفة – وهي المحرِّك الحقيقي للتجربة– متوافرة في النص، كما أن الخيال المجنح، والموسيقا الشجية الهادئة الحزينة زادت من جمال الأبيات، وأعطت التجربة فرصة الاكتمال والنضج.

ومما يجدر بي أن أشير إليه هنا أن الصدق الفني مطلب أساس في التجربة الشعرية؛ إذ هو الفيصل بين حقيقة التجربة وزيفها، وإنما ينشأ الصدق بمعايشة الشاعر لموضوعه وتفاعله معه، وبوجود نوع من المعاناة الحقيقية التي يشعر بها، ويحسها، ويمتزج بها، حتى تتمكن منه، ويتمكن منها، فإن تم ذلك ظهرت التجربة في أجود صورها [2] .

ومن النماذج المشرقة الصادقة التي اكتملت فيها التجربة في الروميات، رثائيته المؤثرة لأمه:

أيا أم الأسير سقاك غيث برغم منك ما لقي الأسير
أيا أم الأسير سقاك غيث تحير لا يقيم ولا يسير
ليبكك كل يوم صمت فيه مصابرة وقد حمي الهجير
ليبكك كل يوم قمت فيه إلى أن يبتدي الفجر المنير
إلى من أشتكي؟ ولمن أناجي إذا ضاقت بما فيها الصدور[3]

وكثيراً ما انحنت التجربة على موضوع ليس بذي أهمية، وما زالت تنفذ في أقطاره من عمق إلى عمق، حتى يصبح عالماً فنياً جليل الجمال[4]، وهو ما نلمحه في قصيدته (الحمامة النائحة) [5] إذ استثمر أبو فراس منظراً معتاداً في الحياة، وهو منظر حمامة تنوح؛ إلا أنه استطاع أن يمزجه بمشاعره وأحاسيسه بشكل لافت للنظر ومؤثر، واستطاع من خلال ذلك أن ينفذ فيه إلى أقطار معاناته:

(١) ديوان أبي فراس: ص٢٣٨ .
(٢) انظر: عن اللغة والأدب والنقد : ص٣٦٩، محمد العزب، مطبعة الحافظي، القاهرة (د.ت).
(٣) ديوان أبي فراس: ص١٦٢، ١٦٣ .
(٤) انظر: عن اللغة والأدب والنقد: ص٣٧٠ .
(٥) انظر: ديوان أبي فراس: ص٢٣٨ .

معاذ الهوى ما ذقت طارقة النوى ولا خطرت منك الهموم ببال

أتحمل محزون الفؤاد قوادم على غصن نائي المسافة عال

أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا تعالي أقاسمك الهموم تعالي

لقد كنتُ أولى منك بالدمع مقلةً ولكن دمعي في الحوادث غال[1]

والملاحظ أن أبا فراس مكّن تجربته عن طريق عقد موازنة بينه وبين تلك الحمامة، فأشاعت هذه الموازنة "ظلالا تجاوز التقسيمات الذهنية إلى نوع من تفجير الأحاسيس المتصلة بأصول عميقة في وجدان الإنسان" [2].

وهكذا كانت التجربة الشعرية في الروميات ناضجة ومكتملة الجوانب، وكان لذلك أكبر الأثر في تألق مستوى الروميات الفني.

(١) ديوان أبي فراس: ص٢٣٨.

(٢) قراءة الشعر : ص٧١، محمود الربيعي (دون ناشر أو تاريخ).

ب – العاطفة :

العاطفة "حالة شعورية في مقابل التصور الذي يحدثه الإحساس، وهي كل حالة انفعالية في مقابل الحالة التعقلية والفاعلة"[١]، أي أنها ذلك الشعور الذي يتكون في حس الإنسان عند تفاعله مع حدثٍ من الأحداث، أو حال من الأحوال.

ولا أميل إلى وصفها بالتنظيم الوجداني الثابت المؤلف من انفعالات[٢]؛ لأن مثل هذا الوصف يوهم أن للعاطفة تقنيناً وتنظيماً وقتياً ثابتاً، والصحيح أنها انفعال تأثري غير خاضع لتنظيم .

والعاطفة من أهم العناصر وأقواها في طبع الأدب بطابعه الغني، والآثار الأدبية مختلفة في درجة اشتمالها على العاطفة[٣].

والأدب المؤثر الرفيع روحه العاطفة؛ لأنها إحساس الأديب وشعوره الذي يهيج إحساس القارئ، فيتفاعل مع العمل، ويتأثر به، وهذا التفاعل هو غاية الأدب.

ومعلوم بالضرورة أن حرارة العاطفة وصدقها تؤدي إلى حسن التعبير، واتساع أفق التخييل، وتوحي بشعور الأديب بموضوعه .

والمتأمل في رواميات أبي فراس يلحظ تدفقاً عاطفياً مدهشاً فيها، فجلّ قصائده التي قالها في الأسر ذات عاطفة حارة متوقدة صادقة، حتى إن القارئ ليحس بحرارة تسري في جسمه عندما يقرأها .

وتكاد عاطفة الحزن والأسى تسيطر على الروميات، فأبو فراس – وهو الفارس الشجاع – قد تعود خوض المعارك ومواجهة الموت، فلم يستطع أن يبقى في الأسر مقيداً لا يستطيع حراكاً، ومن جهة أخرى صدم الشاعر الفارس بموقف سيف الدولة وبقية قومه من الحمدانيين الذين لم يهبوا لنجدته وفكاك أسره، كما أنه دائم التفكير بأمه التي عانت من فراقه ما عانت، كل هذه الظروف ألقت بظلالها على شعر الشاعر، وطبعت عاطفته بالحزن والأسى .

ومن شواهد عاطفته المثخنة ألماً قوله:

يا حسرة ما أكاد أحملها آخرها مزعج وأولها

تمسك أحشاءها على حرق تطفئها والهموم تشعلها

إذا اطمأنت وأين؟ أو هدأت عنّت لها ذكرة تقلقلها[٤]

(١) المعجم الأدبي: ص١٦٧، جبور عبدالنور، دار العلم للملايين، ط٢، بيروت، ١٩٨٤م.

(٢) انظر: العمل الأدبي بين الإبداع والأداء: ص١٢٩ ، السيد مرسي أبو ذكري، دار الطباعة، القاهرة، ١٩٨٧م.

(٣) انظر: أصول النقد الأدبي : ص٣١، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، ط٧، القاهرة، ١٩٤٦م.

(٤) ديوان أبي فراس: ص٢٤١ .

والعاطفة "كلما كانت قوية كانت الكتابة أعمق إمعاناً في الأدب وأوفر نصيباً للثبات"[1]، وكلما كانت ضعيفة متكلفة فقد النص أهم مقوماته، وتلاشت فرص خلوده؛ لأنه لن يحرك الأفئدة ولن يبقى في الوجدان.

وعاطفة أبي فراس عندما يتحدث عن أمه دائمة التوقد والتدفق، كما أنها عاطفة صادقة لا يشوبها أي زيف؛ ولذلك كانت نصوصه عن أمه عالماً يموج بالانفعالات والأحاسيس، بخاصة عندما بلغه نبأ وفاتها :

أيا أماه كم همٍّ طويل مضى بك لم يكن منه نصير
أيا أماه كم سرٍّ مصون بقلبك مات ليس له ظهور
أيا أماه كم بشرى بقربي أتتك ودونها الأجل القصير
إلى من أشتكي ولمن أناجي إذا ضاقت بما فيها الصدور[2]

ونستشف من تكراره نداء أمه (أيا أماه) عاطفة حارة متوقدة، تهز وجدان القارئ، وتثير مكنونه.

وليس المراد بقوة العاطفة ثورتها وحدتها، فلقد تكون رزينة هادئة ومع ذلك تكون أبعد أثراً، وأقوى إيحاء؛ لعمقها وأصالتها، فتكون من ذلك أبقى وأخلد[3]، ولنتأمل هذه الأبيات التي بعث بها أبو فراس لسيف الدولة وهو في الأسر:

تنكّر سيف الدين لما عتبته وعرّض بي تحت الكلام وقرعا
فقولا له من أصدق الود إنني جعلتك مما رابني الدهر مفزعا
ولو أنني أكننته في جوانحي لأورق من بين الضلوع وفرّعا
أما ليلة تمضي ولا بعض ليلة أسرّ بها هذا الفؤاد المروّعا[4]

فهذه أبيات ذات عاطفة هادئة متنامية، أضفت على القصيدة مسحة من جمال مؤثر، ونوعاً من إيحاء معبّر.

والحكم على صدق العاطفة من عدمه مقياسه شعور القارئ بها تضطرم داخل النص، وتفاعله معها، حتى تهزه الألفاظ، وتستولي على عقله المعاني والأفكار ، وهذا – بلا شك – يحتاج إلى تجربة صادقة، وإحساس مؤثر لدى المبدع، وتجربة أبي فراس مع الأسر كانت قاسية جداً؛ ولذلك أضفت على عاطفته مسحات من التأثير والصدق .

(١) الكامل في النقد الأدبي :ص ٧٢، كمال أبو مصلح، المكتبة الحديثة ، ط٥، بيروت، ١٤٠٣هـ.
(٢) ديوان أبي فراس: ص١٦٣ .
(٣) انظر: التجديد في الشعر الحديث: ص٧٥ ، يوسف عز الدين ، النادي الأدبي بجدة ، ط١، جدة ، ١٤٠٦هـ.
(٤) ديوان أبي فراس: ص١٨٤ .

وتتميز أغلب الروميات بأنها ذات عاطفة ثابتة التأثير والقوة، وقلّما نلحظ فيها تشتتاً عاطفياً أو تداخلاً شعورياً، يخلُّ بمستوى العاطفة في القصيدة الواحدة، سواء في بدايتها أو في وسطها أو حتى في النهاية التي "دائماً ما توقع الشعراء في مأزق الضعف الشعوري والتهافت العاطفي"(١).

ولو أراد الباحث أن يستدل على هذا الحكم بإحدى قصائد الروميات فإن قصيدة أبي فراس (لنا الصدر أو القبر) (٢) تعد نموذجاً صالحاً للاستدلال، فبداية القصيدة ذات عاطفة صادقة ومؤثرة:

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر أما للهوى نهي عليك ولا أمر

بلى أنا مشتاق وعندي لوعة ولكن مثلي لا يذاع له سر

إذا الليل أضواني بسطت يد الهوى وأذللت دمعاً من خلائقه الكبر (٣)

كما أن العاطفة تستمر في التدفق والقوة أثناء القصيدة:

فأيقنت ألا عز بعدي لعاشق وأن يدي مما علّقت به صفر

وقلّبت أمري لا أرى لي راحة إذا البين أنساني ألحّ بي الهجر(٤)

ولا تلحظ في نهاية القصيدة تشتتاً عاطفياً أو ضعفاً شعورياً، بل إن المستوى العاطفي ما زال قوياً :

سيذكرني قومي إذا جَدّ جدهم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

فإن عشت فالطعن الذي تعرفونه وتلك القنا والبيض والضمر الشقر

وإن مت فالإنسان لابد ميت وإن طالت به الأيام وانفسح العمر (٥)

ومهما يكن من شيء، فالعاطفة الصادقة المتوقدة كانت سراً من أسرار اكتمال المستوى الفني للروميات؛ وما ذاك إلا لأنها كانت صادرة عن تجربة إنسانية صادقة.

(١) دراسات في الشعور الإنساني: ٨٥ ، محمد سيد عبدالله، دار الجيل ، ط١، بيروت ، ١٩٩١م .
(٢) انظر: ديوان أبي فراس: ص ١٥٧.
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) المصدر السابق: ص ١٥٨.
(٥) المصدر السابق: ص ١٦١.

الخاتمـة

لقد حاول هذا البحث أن يعرض بالدرس والتحليل روميات أبي فراس الحمداني، متعمقاً في موضوعاتها، ورؤيتها، ومصافحاً التجربة الشعرية فيها، ومختبراً مدى صدق عاطفتها، وقد ظهر لي الأثر الكبير الذي تركه الألم والفقد في تجربة أبي فراس في الروميات؛ إذ أرشداه إلى معين شعر يلائم طبعه الإنساني، وأوحيا إليه بأروع شعره، وربما كانت تجربة الروميات المسؤولة عن حفظ اسم أبي فراس بين أسماء الشعراء الكثيرين المنسيين الذين تحالفوا عبثاً على المتنبي في مجلس سيف الدولة.

وقد استفاد هذا البحث من التعايش النفسي بين الحدث والذات، تارة مع أمير أُسِرَ وحلمه تاج يسمر على جبينه، وأخرى مع فارس أُسِرَ وملاعبه صهوات الخيل، وثالثة مع شاعر أُسِرَ فظلت الإنسانية بلا طائر يغنيها .

فحينما تنكر له الأصحاب وتأخر ابن عمه في افتدائه تحولت كل رومية من روملياته إلى شعلة وجدانية حارة أحسست لهيبها عند قراءة كل بيت من أبياته.

وقد افتتحتُ هذا البحث بعتبتين تمهيديتين، تضمنتا لمحة تاريخية عن دولة الحمدانيين، ثم نبذة مختصرة عن أبي فراس والبيئة التي نشأ فيها.

وبعد هاتين العتبتين شرعت في دراسة الموضوع الشعري في الروميات، مستفتحاً هذه الدراسة بعرض موجز للروميات، مبيناً سبب تسميتها، ودواعي نظمها ، كألم الأسر، وتباطؤ سيف الدولة في الفداء، وألم أمه وفقدها بعد ذلك، ورقة قلبه، لأنتقل بعدها إلى دراسة الموضوع الشعري في الروميات، مبيناً شكل التعاطي العام مع الموضوع، وقدرة أبي فراس في تناول الموضوعات الشعرية الإنسانية، وقد تراوحت بين اعتداد بالذات، وشكوى ومعاتبة، وشعور طافح بالحنين والغربة، وجزع على فقد الأحبة، وغيرها من الموضوعات .

بعد ذلك تناولت الرؤية الشعرية في الروميات بالعرض والدراسة والتحليل، وقد اتضح لي أن الروميات قامت على رؤية إنسانية شفيفة، وقد تمكن أبو فراس بقدراته الشعرية العالية أن يزرع رؤيته الشعرية في وجدان المتلقي بشكل مدهش، وهذا ما أبانته دراسة التجربة الشعرية والعاطفة في الروميات، فكان الصدق عنواناً رئيساً لها، وكان الهم الإنساني المشترك كلمة السر في معظم قصائد الروميات .

ومن خلال هذه الدراسة الموجزة توصل الباحث إلى بعض النتائج والتوصيات كان من أبرزها:

١-كانت الروميات علامة بارزة مضيئة في شعر أبي فراس الحمداني مكنته من الوقوف بقوة وترسيخ اسمه في عصر عاش فيه مالئ الدنيا وشاغل الناس أبو الطيب المتنبي .

٢-يظل الألم والمعاناة الجذوة المشعلة للإبداع، والموقد الرئيس له؛ فقد أثبتت الروميات أن أبا فراس كان يختزن داخله طاقة إبداع هائلة، فجّرها الأسر الذي تعرض له، وما جره إليها من ألم ومعاناة .

٣-تميزت الروميات باكتمال فني ونضج إبداعي، كان باعثه موهبة الشاعر ومعاناته التي

تعرض لها، ولا شك أن تآزر الموهبة والمعاناة حري بإنتاج أدب مؤثر خالد.

٤-ما زالت الروميات خليقةً بدراسة أثرى وأعمق تكشف جوانب الإبداع فيها، وتسلّط الضوء على أثر الألم في إذكاء الموهبة وصقلها، ولئن بذلت في هذا البحث جهدي إلا أنه يظل متواضعاً ومختصراً، لا يغني عن دراسة أعمق، تكون بقيمة الروميات الفنية .

ثبت المصادر والمراجع

- **أبو فراس الحمداني الشاعر الأمير:** حسان عبدالمولى، دار التنوير ، ط١، عمّان، ١٩٩٦م .
- **أبو فراس الحمداني حياته وشعره:** عبدالجليل عبدالهادي، مكتبة الأقصى، ط١، عمّان، ١٩٨١م.
- **أبو فراس الحمداني:** جورج غريب، دار الثقافة ، ط٣، بيروت، ١٩٨٥م.
- **أثر الحمدانيين في الحياة السياسية في القرن الرابع**، سيد عبدالمجيد، الدار الوطنية، ط١، تونس، ١٩٨٠م.
- **الأدب ومذاهبه:** محمد مندور، دار نهضة مصر، القاهرة، (د.ت).
- **أسس النقد الأدبي عند العرب:** أحمد بدوي، مكتبة نهضة مصر، ط٣، مصر، ١٩٦٤م.
- **أصول النقد الأدبي:** أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، ط٧، القاهرة ، ١٩٤٦م .
- **إضاءات في النقد الأدبي:** عادل القريجات، دار أسامة ، ط١، دمشق، ١٩٨٥م.
- **الأعلام:** خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٨٠م.
- **تاريخ الأدب العربي:** بروكلمان، ترجمة عبدالحليم النجار، دار المعارف ، ط٣، مصر، ١٩٨٣م.
- **تاريخ الأدب العربي:** حنا الفاخوري، المطبعة البلنسية، ط١ ، (د.ت).
- **التجديد في الشعر الحديث:** يوسف عز الدين، النادي الأدبي بجدة، ط١، جدة، ١٤٠٦هـ.
- **التجربة الشعرية عند ابن المقرب:** عبده قلقيلة، نادي الرياض الأدبي، ط١، الرياض، ١٤٠٧هـ.
- **دراسات في الشعور الإنساني :** محمد سيد عبدالله، دار الجيل، ط١، بيروت، ١٩٩١م.
- **ديوان أبي فراس الحمداني:** رواية ابن خالويه، دار صادر، ط١، بيروت، ١٤١٠هـ.
- **زبدة الحلب من تاريخ حلب:** ابن العديم، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي، دمشق ، ١٩٥١م.
- **سيف الدولة وعصر الحمدانيين :** سامي الكيالي، دار المعارف، ط١، مصر، ١٩٨١م.
- **شاعر بني حمدان:** أحمد بدوي، لجنة البيان العربي، ط١، القاهرة، ١٩٥٢م .
- **شذرات الذهب:** ابن العماد الحنبلي، المكتب التجاري، ط١، بيروت، ١٩٧٥م.
- **الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث:** مصطفى السحرتي ، مطبوعات تهامة، ط٢، جدة، ١٤٠٤هـ.
- **الشعر في رحاب سيف الدولة الحمداني:** سعود عبدالجبار، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨١م.
- **العالم الإسلامي في العصر العباسي:** حسن محمود وأحمد الشربيني، دار الفكر العربي ، ط١، القاهرة، ١٩٨٤م.
- **العمل الأدبي بين الإبداع والأداء:** السيد مرسي أبو ذكري، دار الطباعة، القاهرة ، ١٩٨٧م.
- **عن اللغة والأدب والنقد :** محمد العزب، دار الحافظي، القاهرة، (د.ت).

- **الغربة في الشعر العربي**: أمين صادق، دار الفكر العربي، ط١، دمشق، ١٤٠٧هـ.
- **في الأدب العباسي**: محمد مهدي البصير ، مطبعة النعمان، ط١، بغداد ، ١٩٨٠م.
- **في النقد الأدبي**: شوقي ضيف ، دار المعارف، ط٣، مصر ، ١٩٨٤م.
- **قراءة الشعر**: د. محمد الربيعي، (د.ت و د.ن).
- **الكامل في النقد الأدبي**: كمال أبو مصلح، المكتبة الحديثة، ط٥، بيروت، ١٤٠٣هـ.
- **المعجم الأدبي**: جبور عبدالنور، دار العلم للملايين، ط٢، بيروت، ١٩٨٤م.
- **نشوار المحاضرة**: القاضي التنوخي، تحقيق عبود الشالحي، دار المنار، ط٣، بيروت، ١٤١٠هـ.
- **النقد الأدبي الحديث**: محمد غنيمي هلال، دار النهضة، ط٤، مصر، ١٩٧٩م .
- **النقد التطبيقي والموازنات**: محمد الصادق عفيفي، مكتبة الخانجي، ط١، القاهرة، ١٣٩٨هـ.
- **نهر الذهب في تاريخ حلب**: الغزي، المطبعة المارونية، ط١، حلب، ١٩٢٦م .
- **وفيات الأعيان**: ابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، ط٤ ، بيروت، ١٩٨١م .
- **يتيمة لدهر في محاسن أهل العصر**: الثعالبي، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر، ط٢، بيروت، ١٩٧٤م .